مجلة العلوم الإنسانية والحضارة ـــ ISSN 2661-7307
المجلد 07 ـ العدد 01 ـ السنة 2025 ص 83 -98 EISSN 2773-4048
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/730
https://doi.org/10.34118/jhc.v7i1.4719

تبرير الظاهرة الاستعمارية عند ستيفان أكصيل.

The justification of the colonialism fenomenon in the book of Stephane Gsell Histoire ancienne de l'Afrique du nord

تو اتي بن التومي [1]* ، صبيحة أوكيل[2]

1 جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجز ائر)، t.bentoumi@lagh-univ.dz

2 جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجز ائر)، S.oukil@lagh-univ.dz

مخبر الدراسات التاريخية للوطن العربي عبر العصور

تاريخ الإرسال: 2024/12/04 تاريخ القبول: 2024/12/25 تاريخ: النشر: 2025/01/01

الملخص:

إن الكتابات المتعلقة بشمال افريقيا في الغالب وردت بأقلام أجنبية بداية من المصادر ومن ثم المراجع التي فصلت في كل ما يتعلق بتاريخ المنطقة غير ان اغلب هذه الدراسات قد اعتمدت على وسائل وأهداف كان الغرض الأكبر منها التبرير لظاهرة الاستعمارية، وفي تناول امثلة عن ذلك لا يمكن أن نتجاوز المؤرخ ستيفان قزال الذي هدف في أغلب مؤلفاته إلى تبرير الاستعمار الفرنسي بالاستعمار الروماني، بوصفه عاملا من عوامل الحضارة ومكملا لسابقه مع خلق تشويهات تمس التاريخ المحلي عموما، وعليه في هذا المقال سنعتمد على المنهجين الوصفي والتحليلي ونتوقف عند قضية ربط تاريخ الاستعمار الفرنسي بالروماني عند قزال، وكيف اعتبر المرحلة الثانية مكملة للمرحلة الأولى من التاريخ الأوربي في الجزائر، لكون قزال قد تنبّه إلى أهمية التراث التاريخي لربط الفترة القديمة بالحديثة جاعلا من الفترة الإسلامية فترة فراغ عاشها المغرب العربي عموما، وبناءا على هذا نطرح السؤال التالي: ما هي مظاهر تبرير المؤرخ ستيفان قزال للاستعمار الفرنسي والروماني في الجزائر؟

الكلمات المفتاحية: ستيفان قزال، الظاهرة الاستعمارية، شمال افريقيا، الاستعمار الروماني

* المؤلف المرسل

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i1.4719

Abstract:

The writings on North Africa were often received by foreign pens, beginning with the sources and thus the references that were elaborated on all matters relating to the region's history. However, most of these studies relied on means and objectives, the main purpose of which was to justify the colonial phenomenon. And in dealing with examples of this, we cannot go beyond the historian Stefan Gzell, most of whose authors aim is to justify French colonialism by Roman colonialism, as a factor of civilization and complementary to its predecessor while creating distortions affecting local history in general And so in this article we will rely on the descriptive and analytical methodologies and stop with the issue of linking the history of French colonialism to Roman at Algeria, How the second phase was considered complementary to the first phase of Algeria's European history In view of the fact that Gzell has drawn attention to the importance of the historical heritage of linking the ancient period to modernity, which makes the Islamic period a vacuum that the Maghreb has generally lived in, we therefore ask the following question: What are the manifestations of history's justification for French and Roman colonialism in Algeria?
Keywords:
Stéphane Gsell, Colonialism phenomenon, North Africa, Roman colonization

.

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i1.4719

مقدمة:

تناولت العديد من الأقلام غير المحلية تاريخ شمال افريقيا انطلاقا من المصادر الكلاسيكية التي أتت على ذكر مختلف الاحداث المتعلقة بالمنطقة والتي ربطتها علاقات بشكل او بآخر بالمستعمر الروماني الذي دخل في صراع مع قرطاجة الحضارة الوحيدة في المنطقة، كما اعتمدت بعض المراجع الأجنبية تاريخ المنطقة ولعل اهم الأقلام الفرنسية التي كتبت عن شمال افريقيا أذكر ستيفان قزال الذي عاصر المرحلة العظمى، وهو الذي ألف الكثير من الكتب التي كان أبرزها كتاب تاريخ شمال إفريقيا القديم، والذي دوّن فيه كل ما يتعلق بتاريخ المنطقة من عصور ما قبل التاريخ وصولا الى الفترة الرومانية وانطلاقا من هذا وذاك يمكن ربط مقاربة بين الاحتلالين الروماني والفرنسي.

ومن هنا نربط أهمية هذه الدراسة بالاطلاع على سياقات التأليف لكتاب تاريخ شمال إفريقيا القديم، هذا الأخير هدف إلى التبرير للاستعمار الفرنسي بالاستعمار الروماني أي برسم المخلفات التاريخية داخل أطره، حيث سنجد أنه أعتمد في تأليف الكتاب على فكرة أمجاد الحضارة الرومانية المندثرة التي صنفها الكثير من المؤرخين الفرنسيين على أنها كانت منبع حضاري لطول مدتها أولا، ولكونها كانت سباقة للاستعمار في شمال افريقيا.

ومن هذا نهدف إلى إبراز فكرة التبرير الاستعماري عند ستيفان قزال فنوضح الأفكار التي انطلق منها والأهداف التي حاول الوصول إليها وأبرز المحطات التي توقف عندها على الصعيد الدولي الذي كان يحيط بالبحر المتوسط، وأبرز النتائج التي خلصت إليها، ومنه نبني على هذا ونصيغ الإشكالية التي بها نستهل هذا المقال وهي كالتالي: كيف برّر المؤرخ ستيفان قزال للاستعمار الفرنسي والروماني في الجزائر؟ أما من ناحية المنهج الذي يتماشى وموضوع الدراسة فقد أستعملنا منهجين الوصفي والتحليلي، لأن دراسة موضوع تبرير الظاهرة الاستعمارية يحتاج إلى الكثير من التحليلات بعد عرض رأي ستيفان قزال ولكون كتاباته لازالت أصلا تحتاج إلى دراسات معمقة وقراءتها في سياق رد الاستعمار الفرنسي للاستعمار الروماني.

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i1.4719

1. التعريف بستيفان قزال وأهم أعماله:

ولد ستيفان قزال (Stephane Gsell) في 02/17 /1864م، بباريس –فرنسا- وقد اختص في تاريخ إفريقيا الشمالية القديم، وتاريخ الجزائر في الفترة الرومانية، كما يعد من الأثريين المرموقين ومن الشخصيات العلمية البارزة التي ساهمت في الرصيد التاريخي للجزائر، وقد عمل أستاذ لتاريخ إفريقيا الشمالية في القديم بمجمع فرنسا (Collège de France) من (1912-1932)، وانتخب عضوا بالأكاديمية الخاصة بالنقوش والفنون الجميلة في 1923م، واستمر في نشاطه العملي وفي التدريس بالمجمع حتى توفي في يوم 1932/01/01م، ولقد تعددت مؤلفات ستيفان قزال التي تشمل مجموعة من الكتب وعشرات المقالات حول تاريخ الجزائر القديم وتاريخ إفريقيا الشمالية في مجالات متخصصة وأشهرها حسب صدورها: أبحاث أثرية في تاريخ الجزائر، الدليل الأثري لنواحي مدينة الجزائر في القديم الآثار القديمة في الجزائر، تحقيق إداري حول الأعمال المائية في الجزائر، الصناعات الأهلية بالجزائر، الأطلس الأثري بالجزائر، هيرودوت نصوص خاصة بإفريقيا الشمالية، النقوش اللاتينية بالجزائر، نزهات أثرية في نواحي مدينة الجزائر[1].

ومما لا شك فيه أن إلمام ستيفان قزال بالحفريات واطلاعه على أعمال أقرانه من علماء الحفريات وأطروحاتهم جعله ملما بالمصادر مما أعطى له المفاتيح لقراءة النصوص الأدبية، وما إن حلت الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر حتى بزغ نجم ستيفان قزال الذي أوكلت إليه مهمة تقديم كتاب ذائع الصيت يخلد تلك الذكرى **(تاريخ ومؤرخي الجز ائر)** (Histoire et Historiens de L'Algérie)، والذي يعتبر ودون مبالغة كتاب كلاسيكي في الموضوع الذي تناوله، فقد سارع المؤرخين الفرنسيين لإعداد الحصيلة التي توصلوا إليها على مدى قرن من احتلال الجزائر، وفي هذا خلّدوا اسمائهم في هذا المؤلف، وعرضوا فيه نتائج بحوثهم وقد نشر عام 1930م وشرحوا فيه المناهج والطرق التي استعملوها، ورغم تواجد ثلة من المؤرخين إلا أن مهمة التقديم أوكلت إلى أشهرهم وهو المؤرخ ستيفان قزال[2]، وإذا تتبعنا تقديم قزال لهذا الكتاب تتضح الرؤية الاستعمارية التي يحملها والنهج الذي انتهجه لتبرير الظاهرة الاستعمارية عموما وجعل الاستعمار الفرنسي قد عاد إلى الجزائر باحثا عن إرث تاريخي تركه الرومان، بمعنى التبرير للاستعمار الفرنسي بالاستعمار الروماني.

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i1.4719

ضف إلى ذلك جعل قزال من تاريخ 1830م بداية انطلاق الحضارة في الجزائر أي أن الفرنسيين هم من حملوا هذا الإشعاع الحضاري إلى الجزائر، وما كانت مرحلة الإسلام سوى مرحلة فراغ يمكن التغافل عنها حيث قال فيها: "ماذا عرفنا عن تاريخ شمال إفريقيا عام 1830م؟ أشياء قليلة جدا من أجل العصور القديمة وبعض الحكايات الحربية التي قدمها الرومان والبيزنطيين التي قد منع الجهل الذي في البلاد من استبدالها في إطارها ثم سلسلة من أسماء الأماكن المتناثرة والتي ظلت ترى وبشكل غير مؤكد من أجل تطوير المسيحية، والكثير من الأسماء للأساقفة معظمهم غير معروفين، وبالنسبة للفترة الممتدة من الفتح العربي إلى القرن 16م فإن هذا لا يعني شيئا بالنسبة للفترة الحديثة، ومن المؤسف أن الحملات التي قامت بها المسيحية فقد تعرضت الجزائر لحملة ثم تلاها غزو الجزائر"[3].

بمعنى أنه يتأسف على الحملات المسيحية التي فشلت آنذاك ضد الأتراك، ولربما هذا ما أظهره في كتابه تاريخ شمال إفريقيا القديم، فالأمثلة السيئة دائما ما ضربها بالأتراك أو مثلهم بها، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على الروح الدينية التي كانت تسيطر على كتاباته، ثم طرح العديد من الأسئلة التي هي في الحقيقة تبريرا واضحا لما يمكن أن نسميه الاستعمار (الفرنسي والروماني) فقال: "ماهي أصول هؤلاء السكان الذين وجهناهم؟ كيف تشكلت عاداتهم ومواقفهم ومعتقداتهم؟ ماهي الأمثلة التي يمكن أن تقدمها لنا دراسة الاستعمار الروماني الذي يبدوا قويا جدا ومزدهرا ثم أعقبه هذا الانحدار المؤسف؟ فقد بدأنا التحقيق أولا بطبيعة الحال بشأن ما يخصنا أو ما سيكون ملك لنا في الجزائر"[4].

هذه الأسئلة المطروحة في هذه المقدمة يمكن القول إن إجاباتها جاءت وفق نظرية استعمارية في كتابه تاريخ شمال إفريقيا القديم خاصة في الجزء السادس، ثم بالعودة إلى هذه المقدمة نجد أن ستيفان قزال قد أعاد تسمية الجزائر إلى الفرنسيين، وأن الاسم أخذ سنة 1838م فقال: "الجزائر اسم أنشأناه وأصبح رسميا فقط في عام 1838م قطعة مقطوعه بشكل تعسفي في شمال إفريقيا الذي كان في ذلك الوقت تركي، وقد حصلت بعد ذلك على حدودها الحالية تقريبا ووحدة وهمية جعلت منها فرنسا قدر المستطاع وحدة حقيقية، وقبل القرن الخامس عشر لم تكن الدولة التي نسميها الجزائر الآن، والتي كان يطلق عليها المسلمون البلد الأوسط، ضف إلى هذا قال: "يجب أن يتتبع التاريخ أيضًا آثارنا لأننا

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i1.4719

سادة في كل مكان ودائمًا إلى الأبد؛ كما أن حيوية الاستعمار الأوروبي لا تقل ضرورة لتقريب السكان الأصليين إلينا، بروح شرسة وأمل اندماج في المستقبل البعيد إلى حد ما"[5].

ويضيف أنه لا ينبغي أن نسيان أن معظم الأفارقة لم يتركوا مبانٍ مبنية من مواد متينة ولا نقوشًا، وللتعرف على المؤسسات العسكرية والإدارية بشكل جيد يجب البحث في فترة البيزنطية، إلا أن النقوش أصبحت نادرة مع العصر الإسلامي ما جلب البؤس الأسود في القرون الأولى من هذه الفترة الطويلة، حيث لم يظهر سوى مؤرخين متأخرين جدًا عن الأحداث الحقيقية، كانوا يعلقون أنفسهم قبل كل شيء بالأحداث العسكرية، التي يروونها بطريقة منحازة. وبشكل غير ذكي[6].

هذا بالنسبة لتقديمه لكتاب تاريخ ومؤرخي الجزائر ولكن بالنسبة لأهم مؤلف الذي هو زبدة أفكاره و محور دراسة مقالنا فهو كتاب **"التاريخ القديم لشمال افريقيا"**، في ثمانية أجزاء، فقد كتب هذا المؤلف في الفترة الممتدة من (1913-1928م) وتناول فيه ظروف التطورات التاريخية منذ بدايات تواجد الإنسان في المنطقة حسب الوثائق المتوفرة في عهده حتى نهاية الممالك المحلية وتحويل مملكة موريطانيا القيصرية إلى ولاية رومانية سنة 40م، وقد قام فيه بدراسة أغلب المكتشفات الأثرية والمصادر الكلاسيكية والمخلفات وعرضها ونقدها وتحقق من صحتها حسب خبرته المكتسبة في معرفة أحداث وظروف المنطقة خلال الفترة المدروسة، وعلى الرغم من قدم هذا الإنجاز لاتزال الكثير من الأمور التي وردت فيه تحمل الغموض، إلا أنه في المقابل تميز بلغة سهلة وبسيطة وواضحة وربما يرجع هذا إلى تكوينه اللغوي والعلمي، وكان هدفه إتمام كتابة تاريخ المنطقة في الفترة الرومانية ولكن المنية وافته قبل هذا المشروع، وحاول بعض طلبته إكمال المشروع ولكن لم يتم لهم ذلك[7].

2. التبرير للاستعمار الروماني:

قال المفكر والفيلسوف مالك بن نبي: "الاستعمار يعتبر من الوجهة التاريخية نكسة في التاريخ الإنساني، لأننا إذا بحثنا عنه فسنجد أصوله تعود إلى روما، حيث وضعت المدينة الرومانية طابعها الاستعماري في سجل التاريخ"[8]، وقد اهتم الكثير من المؤرخين الغربيين بالمنطقة وادرجوا الكثير من الكتابات حول التاريخ والفكر في المرحلة الاستعمارية لا من أجل التعديل الثقافي بل من أجل التعديل السياسي لوضع خطط سياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد من ناحية، ولتسيير الاوضاع طبقا لما تفتضيه هذه السياسات لتسيطر

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i1.4719

على الشعوب الخاضعة لسلطانها[9]، من المعلوم في فقه المصطلحات أن مصطلح الاستعمار لا يساوي بتاتا مصطلح الاحتلال بالمعنى الكامل، وهذا قد شرحه مالك بن نبي حين قال: "عندما ينزل جيش أجنبي بأرض شعب فإن هذا الشعب يكون معرضا ليرى إما احتلال مؤقتا في بلاده وإما عملية ضم تضعه نهائيا تحت سلطة شعب آخر"[10].

ويمكن أن نلاحظ كيف أن ستيفان قزال قد برّر كثيرا للاستعمار الروماني، كما شدّد على التواجد القرطاجي في إفريقيا، وأظهره بصفة وحشية حينما قام بمقارنته بالاستعمار الروماني فقال: "قرطاجة لم تفكر في التوسع في المنطقة إلا بعد أكثر من ثلاثة قرون يظهر أنها لم تمتد لما وراء البلاد التونسية شمالا، وزيادة على هذا فليس هناك ما يؤكد أن الوافدين قد استعمروا هذه المنطقة استعمارا واسعا، والرومان إلى عصر يوليوس قيصر لم يستولوا إلا على الشمال الشرقي للبلاد التونسية باستثناء إحدى المحاولات الفاشلة لإعادة الحياة إلى قرطاجة، فإنهم لم ينشؤوا أي مستعمرة ومع ذلك فإن نصف القرن السابق للميلاد والذي تلاه قد شهد إنشاء 12 مستعمرة بإفريقيا استوطنها عدد من الأجانب الإيطاليين خاصة"[11].

ضف إلى ذلك ورغم اعتراف قزال بأن التكوين السكاني الغالب لهذه المدن الصغيرة هم الأفارقة فالمدينة بالنسبة له كانت أجنبية على السكان، فهذه المدينة بثقافتها اللاتينية كانت رومانية غريبة على السكان الذين ظلوا غريبين عليها وهي إرث المستعمر، حيث يلخصها بقوله: "نحن اللاتينيون ورثة اللاتينيين على هذه الأرض وعلينا واجب الجمع والحفاظ على أكثر الشواهد قيمة لمنجزات أسلافنا، فكان مساهما في زرع فكرة المستعمر بأن هذه الفترة ليست للأفارقة بل هي للأوربيين؛ فالفرنسيون جاؤوا ليعيدوا وصل هذه الفترة القديمة بتواجدهم، فهي إرثهم وثقافتهم ولم تكن الفترة الإسلامية إلا فترة انقطاع بينهما بالحقيقة أن هذه النظرة ستستمر لدى الباحثين الفرنسيين التالين ليظهر على أساسهما فيما بعد فكرة فجر التاريخ خاصة عند المؤرخ "غابريال كامبس"(Gabriel Camps)[12].

وأدرج قزال رأيه الخاص الذي يقضي بالتأصيل لفكرة "الخونة" وبرّر لها من منطلق روماني فقال: "منذ القرن الميلادي الثاني فإن قسما كبيرا من الجيوش كان يتكون من أبناء البلاد بينما الفيالق كانت من أبناء الإيطاليين[13]، كما ربط الأقوام التي مسّها الاستعمار الروماني أو ما يسمى الحضارة اللاتينية بالتقدم في حين أن التي كانت بعيدة عنه فقد بقيت على حالها، ثم يسترسل قزال في تاريخ المنطقة بأكملها مظهرا حاجة السكان أولا للأجانب وما

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i1.4719

قدّمته كل الاحتلالات، في حين يجعل كل من الفتح الإسلامي كالاستعمار الروماني وكالغزو الوندالي، كما يجعل من الاستعمار الفرنسي أقل وطئا من سابقيه مبررا له بنشر الحضارة الإنسانية فقال: "عند دخول الوندياليين إلى شمال إفريقيا فإنهم على الأكثر كانوا مائتي ألف، ولكنهم لم يمتزجوا بالأفارقة، وبعد ذلك بقرن من الزمن تحطمت المملكة التي أسسوها، وإن الذين لم يقع القضاء عليهم أثناء الفتنة نفاهم جميعا على وجه التقريب الإغريق المنتصرون كما أن هؤلاء الأخيرين لم يخلفوا أثرا أبقى من السابقين وذلك لانهم حكموا بقدر ما استطاعوا أجزاء الولايات الرومانية القديمة التي استطاعوا التغلب عليها"[14].

ومما سبق يتضح تساهل ستيفان قزال في التسلسل الاستعماري بين الدول التي استعمرت الجزائر، في حين يجعل الفتح الإسلامي غزوا عربيا مشككا في انتشاره وتقبل السكان له، ووصفه بالوحشية وأنه حمل معه فكرة الاسترقاق والاستعباد، وفي الوقت نفسه قد برأ الاستعمار الفرنسي منها، وجعل هذه الظاهرة تتناقص منذ وصول هذا الأخير إلى إفريقيا، وبذلك وقع قزال في واحدة من أكبر المغالطات، فذكر: "والسود أصلهم من أواسط إفريقيا وعددهم كثير بالمغرب وموجودين بالجزائر وتونس وكان عددهم يقل منذ "الفتح" الفرنسي كما يسميه، وإلغاء الاسترقاق وربما كان جلب السود عبر الصحراء يرجع لتاريخ بعيد وعلى كل حال فعملية الجلب هذه لا يظهر أنها كانت نشيطة في العهود العتيقة لكن منذ أن تغلغل الإسلام في قلب القارة لم تنقطع النخاسة عن جلب مجموعات من السودانيين إلى أرض المغاربة فكان الكثير منهم يصيرون عبيدا في البيوت"[15] وقد برأ الرومان من هذا الفعل حين رفض أن الإمبراطورية الرومانية يمكن أن تجلب العبيد للعمل في الزراعة لكون المنطقة الشمالية كانت مليئة بالسكان مما يكفيها من اليد العاملة.

وإذا قمنا بتركيب المعلومات والأفكار الخاصة بالمؤلف سنجد أن فكرة إلغاء العبيد لم يتحملها لا الرومان ولا الفرنسيين، ضف إلى ذلك ستيفان قزال قد حرّك النعرات ما بين البيض والسود ،العرب والبربر وكذا المسيحية والإسلام، وفي كلامه عن ذوي البشرة الغامقة كما أطلق عليهم، وأن المناطق التي سكنوها في الصحراء الجزائرية لم تكن منطقتهم الحقيقة وإنما جاؤوها كوافدين من الأراضي السودانية أي أواسط إفريقيا، وأنهم لا يملكون الأرض وإنما هي للبربر الذين لا يسكنون تلك الواحات لأن مناخها لا يناسبهم، ثم يدخل عنصرا آخر في قضية البيض وعلاقتهم بالإسلام وكيف استعبدوا ذوي البشرة السوداء حسب زعمه

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i1.4719

فقال: "المؤكد هم أن البيض كانوا سادة الصحراء خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، والإسلام في ذلك الوقت انتشر نحو الصحراء وبها تعرّف على البربر الذين أسلموا" ثم يعيد فكرة الملكية إلى الرومان ويقول: "أما عن الأزمنة الغابرة فنعرفها من خلال شهادة واحدة دقيقة كتبت في سنة 350م، وهي في بحث جغرافي صغير ورد فيه جنوب إفريقيا ويحدد مكانها بإفريقيا الرومانية الرسمية وهي طرابلس وتونس وهي المنطقة التي تمتد الى صحراء واسعة جدا يسكن في نقاط منها البربر الملقبون بالامازيغ (Mazices) والاثيوبيون"[16].

ثم تكلم عن الانتشار الهلالي فقال ومثل ذلك حدث مع المحاربين العرب الذين حطّموا السيادة البيزنطية وأخضعوا الأهالي وحولوهم إلى الإسلام، فهم قد تجمعوا في المدن وزيادة على ذلك لم يكن عددهم كثيرا فلم يتغلغلوا في الكتل البربرية الداخلية التي لم تلبث أن استعادت أرضها، وفي القرن 11م فحسب كان على الشمال الإفريقي أن يتحمل هجوما عربيا كبيرا هو هجوم بني هلال وبني سليم فهل كان عددهم حين قدموا 150.000 أو 200.000 أو 500.000 أو كان عددهم مليونا أو مليونين، كل هذه الأعداد التي ذكرت كانت مجازفة لكن الأكيد أن الوافدين الجدد أصبحوا يكوّنون أحد العناصر الهامة للسكان، حيث أنهم رعاة رحل فقد انتشروا في السهول حتى المساحة الشمالية للصحراء، وكثيرة هي القبائل التي ترتبط بهؤلاء الفاتحين، وكلها تختلط إلى حد ما بالدم البربري والشخص الطرازي العربي الخاص فيها قليل جدا[17].

بصفة عامة يفسّر قزال التاريخ تفسيرا خاطئا ويستغل بعض المصطلحات أو الآراء التي أوردها المؤرخون ثم استعملها كمبررات في تحليلاته[18]، ومنها مثلا القول أعلاه عن بني هلال وبني سليم حينما قال ابن خلدون في مقدمته أنهم عندما جازوا لإفريقية وبلاد المغرب قد ألحقوا بها ضررا وعادت بسائطها خرابا في حين أنه أكد على جملة كانت في غاية الأهمية وهي "أن البربر قد مكثوا سالمين في معظم الشمال الإفريقي خصوصا الأماكن التي لم يفتحها العرب"[19]، ويعود قزال ويقول: "الملوك الذين حكموا البربر في العهد الإسلامي غالبا ما استخدموا الميليشيات التي كانت أصولها أجنبية ولعدم وجود أي رابط يربطهم بالبلاد فليس لهم أي مصلحة في الإبقاء على القبائل الاهلية التي يؤمرون بمحاربتها ولكن كان يسهل عليهم الفوضى والمشاركة بالمقابل في الفتن التي تحدث داخل القصور[20].

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i1.4719

ثم ينتقل إلى العهد (العثماني–تركي) وهو معروفا ذلك العداء بينهم وبين الفرنسيين خاصة نفى المؤلف لجل الجوانب الحضارية التي أسسها العثمانيون في الجزائر، فقد جنى على الفترة العثمانية وأظهر السلبيات فقط رغم الحقب الطويلة والحوادث الهامة داخل البلاد وخارجها، ورغم التغيرات الجديدة التي طرأت على المنطقة خاصة في علاقتها مع أوروبا وفرنسا على وجه الخصوص فقال :" أما الجنود والقراصنة الذين جاؤوا من مختلف أصقاع البحر المتوسط أثناء العهد التركي فإنهم لم يخلفوا شيئا، وسرعان ما كانت تجرهم حياة الملذات والمخاطر وقلما كانوا يؤسسون أسرا دائمة"[21].

وحتى في سياسة فرق تسد يضرب ستيفان قزال الأمثلة بالأتراك، ويستثني منها الفرنسيين ويقول بأنهم يجتهدون ليكونوا على علم بما يجري ويستغلون شكوك وأحقاد الأقرباء داخل الأسر والأقارب، فيضمنون لأنفسهم الطاعة ويواجهون قبيلة بقبيلة ورئيس برئيس، وإذا صارت قبيلة كبيرة وقوية فلا يتأخرون بتجزئتها وتقسيمها ليضمنوا كل الولاء، وحتى في باب الضريبة ضرب مثال بقرطاجة والأتراك دون الرومان والفرنسين، ويقول: "يقوم طابورا من الحراس النظاميين المصحوبين أحيانا ببعض القبائل المجاورة التي تجذبها كثرة الغنائم، فتدخل أراضي المتمردين ويتكلفون بتحصيل الضرائب أو بالأحرى يتكفلون بنهب الأكثر انتاجية ويحتفظون لأنفسهم بجزء كبير منه"[22].

إذن نتج عن هذا التلخيص طمس وعدم توازن بين الفترات التاريخية من ناحية الإنجازات الحضارية فحظيت اثنتان بالعناية الكاملة والبحث المفصّل وهما العهد الروماني والعهد الفرنسي، إلا أن عند ستيفان قزال قد برّر المرحلة الفرنسية بالمرحلة الرومانية، وفي المقابل عانت اثنتان من الإهمال[23]، ونظرا للمقاومة العنيفة التي واجهتها فرنسا من الجزائريين منذ 1830م فإنهم أجبروا على البحث عن أماكن القوة والضعف للمقاومة وقدرتها المادية والمعنوية وبواعثها الروحية ومعتقداتها الدينية، ولذلك جندوا كل معلوماتهم لمعرفة ذلك وقد فسروها بمفاهيم استعمارية مغرضة كانت تهدف أساساً إلى ترسيخ الفكر الاستعماري في الجزائر[24].

لذلك عندما تحدث ستيفان قزال عن عبادة الإنسان للإنسان في العهود الغابرة مثل العهدين الفينيقي والروماني، واستند على هذه الفكرة وربطها بالصوفية خاصة في شمال افريقيا فقال: "لا تزال عبادة الانسان للانسان موجودة عند البربر في أماكن حيث يقدس

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i1.4719

الأولياء بورع كبير ولهؤلاء القديسون قوة مقدسة تضعهم فوق غيرهم من الناس، وتجعل لهم تأثيرا على السائل عند لمسهم او اتصاله بهم"[25]، ثم يطعن في الإسلام بطريقة مغرضة بعد استناده لفكرة عبادة الإنسان للإنسان وربطها بالأولياء والصالحين. ويقول: "بفضل الله وباسمه يقدم الأولياء الأدلة على قوتهم، وبذلك ادمجت هذه الأفكار في الدين الاسلامي ولكنها بدون شك شكل من أشكال التدين قبل الإسلام، وإن هذا الدين قد تقبلها لأنه لم يصل لجعل خضوع المؤمنين مربوطين بالله وحده، ولربما راجع لمدى شعبية عبادة الاولياء في افريقيا"[26].

وبإسقاط بسيط ارجع ستيفان قزال فكرة الوثنية التي كانت مرتبطة بعبادة الافراد الى الفترة قبل مجيء الرومان للمنطقة، وأعطي ادلة اثرية على ذلك من معابد بنيت للملوك مثل ماسينيسا ويوبا الثاني.

3. الحاجة إلى الاجنبي في جل الجوانب الحضارية:

إن ستيفان قزال عندما أراد التأصيل لسكان الشمال الإفريقي استند لواحدة من أبشع الروايات التي تظهر وربطها بفكرة استعمارية، حيث أيد فكرة أن أصل السكان له منطلقات أوربية فمصطلح الاستعمار يبرر له من كل زاوية فقال: "سكان إفريقيا الأولون هم الجيتول والليبيين وهم قوم غلاظ متوحشون يقتاتون بلحوم الحيوانات المتوحشة أو بنبات المراعي كما تفعل القطعان ولا يقفون إلا حيث يداهمهم الليل ولكن بعد أن مات هرقل في إسبانيا فالكثير منهم ركب السفن وتوجه إلى إفريقيا وكانوا ميديون وفرس والأرمنيون وقد اختلطوا بالجيتول وخرجت منهم أقوام سميت النوميد كما خلط الميديون بالليبيين وخرجت منهم سلالة المور؟[27].

ثم إن ستيفان قزال في قضية التأريخ لبلاد المغرب عموما يرجع ذكرها إلى القرن الخامس قبل الميلاد على أكثر تقدير مع أنه وضّح أنها كانت في كتب الأجنبية اليونانية واللاتينية، في حين أنه لم يغفل أن الكثير من المناطق آنذاك كانت تخضع لسيادة الأجانب، حتى في مجال تربية الماشية والزراعة، وذكر ستيفان قزال أن تعليمها يرجع للأجنبي حيث قال: "إن الفينيقين بالتأكيد كان لهم ضلع كبير في نمو الحضارة بشمال إفريقيا، ومع ذلك فلا يجب أن لا نبالغ في ذلك كثيرا مثلما حدث حتى الآن، فأهالي هذه المنطقة لم ينتظروا قدوم البحارة الفينيقيون ليتعاطوا تربية الماشية والزراعة إذن فهل كانت بعض خطاهم في مجال التقدم

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i1.4719

من مبادرتهم ؟ نحن نجهل ذلك ولكننا نستطيع التأكيد بأنهم تقبلوا الكثير على يد الأجنبي"، ولأن الرجل عاش في أسرة متدينة كان يرد الكثير من العادات كالسحر والشعوذة التي ترمي إلى تملك الأموال وطرد الشرور على أنها من أصول بلاد المغرب القديم ومن طقوسها وأن الفيلسوف أغسطينوس لكونه رجل دين مسيحي هو الذي ندّد بمثل هذه الأفعال حتى أكثر من هذا فستيفان قزال قد أول لنا الرسوم والنقوش الصخرية على أنها تعود لفهم السكان آنذاك أن من ترسم صورته يمكنك أن تتغلب عليه وقد استوحوا هذا الرأي من فترة ما قبل التاريخ فقال: "نعتقد أن الكثير من هذه الرسوم قد نقشت لتجعل الحيوانات المرسومة رهن إشارة السكان، كما أن بعض الكلمات السحرية التي ينطق بها أمام الرسوم يمكن أن تتمم مفعولها[28]، فالمواضع التي يحتقر فيها السكان يمكننا أن نلاحظ دوما أنها تنسب إليهم، أما أمور الحضارة فمنبعها دوما الأجنبي.

ومن المواضع التي أسس فيها ستيفان قزال لمرحلة الإسلام بكونها مرحلة فراغ فقط أو أنها مرحلة ما بين الاستعمارين (الروماني–الفرنسي) إن صح التعبير وأن الإسلام لم يمس جل المنطقة المغاربية وإنما بقي فيها الكثير من العادات القديمة التي تعود إلى أصولها الرومانية فهو قول أن البكري ذكر أن قبيلة في الجنوب المغربي حتى في العهد الإسلامي كانت تعبد الكبش أي أنها آثار ديانات يمكن تأويلها بأنها علامات غامضة لعبادة الحيوانات أو هي على الأقل علامات عن عهد القديم بين الحيوانات والناس كالمراعاة الخاصة لبعض الحيوانات وصيانة حياتها والامتناع عن أكل لحومها[29]، وحتى عندما يؤسس للعلاقات العربية البربرية من الناحية الديمغرافية فإنه يقارب بين العلاقات الأوروبية والعلاقات مع أسيا الغربية ويؤسّس لهذه الفكرة بأن الشمال الإفريقي أغلب سكانه ذوي لون أشقر يشبه الرجل الأوروبي[30].

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i1.4719

الخاتمة:

01- إن تبرير ستيفان قزال للظاهرة الاستعمارية الفرنسية بالظاهرة الاستعمارية الرومانية في كتابه تاريخ شمال إفريقيا القديم واضح وجليا للقارئ بدون قراءة ما بين الأسطر.

02- إن الحمولة المعرفية لهذا الكتاب يمكن أن نفهمها من حيث قراءة الحمولة النفسية لستيفان قزال ضف إلى ذلك الخلفية التاريخية والفكرية وحتى الدينية التي انطلق منها.

03- إن الظاهرة الاستعمارية بمختلف أبعادها أعظم نكسة مست التاريخ الإنساني عموما لكي يمكننا أن نفهم التبرير للظاهرة الاستعمارية من طرف الأقلام الاجنبية التي تحركت من منطلقات وخليفات صليبية وإرث الروح الرومانية.

04- شكّك ستيفان قزال في انتشار الفتح الإسلامي وتقبل السكان له، مع وصفه بالوحشية وقد حمّل فكرة الاسترقاق والاستعباد للإسلام، هذه الفكرة كانت بداية لجعل الفترة بين الاستعماريين (الروماني والفرنسي)، هي مرحلة فراغ حضاري في شمال إفريقيا.

05- جعل قزال العهد تركي في الجزائر من أظلم العهود التي عاشتها هذه المنطقة ويعود هذا العداء التاريخي بينهم كما نفى جل الجوانب الحضارية التي أسسها العثمانيون في الجزائر، فقد جنى على الفترة العثمانية ما وأظهر السلبيات فقط رغم الحقب الطويلة والحوادث الهامة داخل البلاد وخارجها ورغم التغيرات الجديدة التي طرأت على المنطقة خاصة في علاقتها مع أوروبا وفرنسا بالخصوص.

06- إن ستيفان قزال استند لواحدة من أبشع الروايات التي تظهر همجية السكان معتمدا على رواية سالوست ونجده يؤيد فكرة أن أصل السكان له منطلقات أوربية ووصفهم بالغلاظ المتوحشون، كل هذا من أجل أن يجعل الرومان والفرنسيين حاملين للحضارة وما على الجزائريين إلا تقبل الحضارة في مختلف مراحلها من أوروبا.

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i1.4719

المراجع:

- بن خلدون عبد الرحمان بن محمد: **مقدمة ابن خلدون**، تح: أ.م. كاترمير، مج01، مكتبة لبنان، بيروت، 1992،
- بن نبي مالك: **إنتاج المستشرقين** وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ط1، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1969.
- ـــــــــــ: **شروط النهضة**، تر: عبد الصبور شهين وعمر كامل مساوي، دار الفكر المعاصر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق،1949.
- ـــــــــــ: **في معب المعركة**، ط3، دار الفكر المعاصر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق ،1981.
- [1]- Stéphane Gsell, **Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord**, Tome 1, 5, 6, Librairie Hachette, Paris, 1927
- Stephane Gsell et (Autre) : **Histoire et Historiens de L'Algérie**. Publié Par Les Soins de La Revue Historique. Paris.1931.

- أوحاشي الطاهر: العهد الروماني في الجزائر 40-430م نقد الإسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية، مذكرة ماجيستير، جامعة الجزائر ،2015-2016.
- أوفرلي محمد الخير: "استيقان قزال الأستاذ والباحث في تاريخ وآثار الجزائر القديمة "، مجلة الدراسات الأثرية، مج08، العدد01، 2015.
- بخدة طاهر: "تاريخ الجزائر في المنظور الكتاب الفرنسيين: الشبهات المنهج والأهداف"، مجلة دراسات في التنمية والمجتمع، مج 07، العدد 01، 2022.
- الصحراوي عبد القادر: " تاريخ الجزائر في القديم من خلال كتابات ستيفان قزال، الحوار المتوسطي، مج01، العدد 02، 2010، ص 116-118.
- بالحميسي مولاي: " موقف المؤرخين من الجزائر العهد العثماني"، مجلة الدراسات التاريخية، مج 03، العدد 09، 1988.
- مناصرية يوسف: " آراء المؤرخين الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر من خلال كتابات جون كلود فاتان"، مجلة دراسات تاريخية، مج03، العدد02، 1988.

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i1.4719

الهوامش:

[1] - عبد القادر الصحراوي: " تاريخ الجزائر في القديم من خلال كتابات ستيفان قزال"، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 02، ص 116-118.

[2] - الطاهر أوحاشي: **العهد الروماني في الجزائر 40-430م نقد الاسطوغرافيا الكولونيا ليه الفرنسية**، مذكرة ماجيستير، جامعة الجزائر 2، 2015-2016، ص 11.

[3]- Stephane Gsell et autres: **Histoire et Historiens de L'Algérie**, Les Soins de La Revue Historique, Paris, 1931, p31.

[4]- Ibid : P32.

[5] - Ibid: P35.

[6]- Ibid : P32.

[7] - محمد الخير أوفرلي: "استيفان أكصيل الأستاذ والباحث في تاريخ وآثار الجزائر القديمة "، مجلة الدراسات الأثرية، مج08، العدد01، 2015، ص 20.

[8] - مالك بن نبي: **شروط النهضة**، تر: عبد الصبور شهين وعمر كامل مسقاوي، دار الفكر المعاصر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، 1949، ص 148.

[9] - مالك بن نبي: **إنتاج المستشرقين** وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ط1، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1969، ص 09.

[10] - مالك بن نبي: **في معب المعركة**، ط3، دار الفكر المعاصر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق ،1981، ص32.

[11]- Stéphane Gsell, **Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord**, Tome 1, Librairie Hachette, Paris, 1927, p277.

[12]- محمد الخير أوفرلي: المرجع السابق، ص 22.

[13] - Stephene Gzell, Op. Cit, p277, 278.

[14]- Ibid, T1, p278, 279.

[15] - Ibid, T1, p283.

[16] - Ibid, T5, p2.

[17]- Ibid, T1, p279.

[18] - طاهر بخدة: "تاريخ الجزائر في المنظور الكتاب الفرنسيين: الشبهات المنهج والأهداف"، مجلة دراسات في التنمية والمجتمع، مج 07، العدد 01، 2022، ص 26.

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i1.4719

[19] - عبد الرحمان بن خلدون بن محمد: **مقدمة ابن خلدون**، تح: أ.م. كاترمير، مج01، مكتبة لبنان، بيروت، 1992، ص 118.

[20] Stephene Gzell, Op. Cit, T1, p279.
[21] - Ibid, T1, p280.
[22]- Ibid, T5, p145, 155.
[23] - مولاي بالحميسي: " موقف المؤرخين من الجزائر العهد العثماني"، مجلة الدراسات التاريخية، مج 03، العدد 09، 1988، ص103.

[24] - يوسف مناصريه: " آراء المؤرخين الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر من خلال كتابات جون كلود فاتان"، مجلة دراسات تاريخية، مج03، العدد02، 1988، ص192.

[25]- Stephene Gzell, Op. Cit, T6, p129.
[26]- Ibid, T6, p130.
[27]- Ibid, T1, p330.
[28] - Ibid, T1, p242, 243.
[29] - Ibid, T1, p244.
[30]- Ibid, T1, p356.